المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v7i3.315

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 5-6-2023
تاريخ القبول: 8-8-2023

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

قلق الخطاب: رحلة في تاريخ تحليل الخطاب من خلال أعمال ميشيل بيشو[1]

دينيس مالديدي[2]
ترجمة: القاسمي بدر الدين[3]
Badreddine.elkacimi@uit.ac.ma

ملخص:

استهدف مالديدي تحديد ظروف نشأة نظرية تحليل الخطاب والسياق الأيديولوجي والمعرفي الذي احتضنها. وقد انطلق في ذلك من الظرفية التي أسهمت في تأسيس لبناتها ومفاهيمها الأولى، ليفترض بعد ذلك أن آلة تحليل الخطاب متشعبة ومتداخلة الروافد؛ لأنها كنظرية ظهرت في فترة تميزت بتواجد اللسانيات البنيوية والتوليدية، والمادية التاريخية خصوصًا مع التوسير ومبحث الإستوغرافيا زيادة على التفكيكية، ليقف أخيرًا عند أهم المراحل الإبيستيمولوجية التي مر منها تشكيل هذا المبحث. وقد خلص بشكل عام إلى كون مشيل بيشو يرفض أن يتم اختزال تحليل الخطاب أو إدراجه ضمن مبحث آخر، بل كان يتطلع الى إبرازه كنظرية مستقلة قائمة الذات لها مفاهيمها ومنهجها وجهازها التحليلي وموضوع بحث محدد، أي تخصص علمي. لكن مع تلاشي الوهم العلمي، صار تحليل الخطاب تخصصًا تفسيريًا من دون برنامج أو منهجية محددة، مما جعل وضعه إشكاليًا.

كلمات مفتاحيـــة:

تحليل الخطاب، نظرية، اللسانيات، المادية التاريخية.

(1) صدر هذا المقال بالعدد الثامن من مجلة Semen سنة 1993 لدنيس مالديديه، وهو متخصص بارز في تحليل الخطاب ولد سنة 1932 وتوفي سنة 1992، وقد اشتغل أستاذًا محاضرًا بجامعة باريس نانترن وعضوًا بالمركز الوطني للبحث العلمي كباحث في تاريخ النظريات اللسانية.

(2) دنيس مالديديه من مواليد سنة 1931، أستاذ جامعي فرنسي متخصص في لسانيات الخطاب وتاريخه، اشتغل بجامعة باريس/ نانترن إلى أن توفي سنة 1992.

(3) كاتب ومترجم مغربي متخصص في تحليل الخطاب السياسي والأدبي.

للاقتباس: مالديدي، دينيس، قلق الخطاب: رحلة في تاريخ تحليل الخطاب من خلال أعمال ميشيل بيشو، ترجمة: القاسمي بدر الدين، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج7، ع3، 2023، 180-193.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجري عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 2023-6-5
Accepted: 2023-8-8

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

The Anxiety of Discourse: A Journey through the History of Discourse Analysis through the Works of Michel Foucault(4)

Denise Maldidier(5)
Badreddine El-Kacimi(6)
Badreddine.elkacimi@uit.ac.ma

ABSTRACT

Maldidier's inquiry centered on tracing the genesis of discourse analysis while considering its ideological and cognitive underpinnings. This exploration began by contextualizing the theory's inception and its foundational concepts. Maldidier highlighted the intricate interplay of structural and generative linguistics, historical linguistics with a focus on semantics and pragmatics, and the influence of deconstruction during its formative phase. Crucially, he emphasized on Michel Pêcheux's commitment to preserving discourse analysis as an autonomous theory with distinctive elements—concepts, methods, analytical tools, and a specific research domain—rather than assimilating it into another discipline. Nonetheless, with the erosion of absolute scientific paradigms, discourse analysis underwent a shift towards interpretation, lacking a cohesive program or methodology and presenting challenges to its application and relevance.

Keyword

Discourse Analysis, Theory, Linguistics, Historical Materialism.

(4) This article was published in issue number eight of the Semen magazine in 1993, written by Denis Maldidier, a prominent specialist in discourse analysis. He was born in 1932 and passed away in 1992. He worked as an associate professor at the University of Paris Nanterre and was a member of the National Center for Scientific Research as a researcher in the history of linguistic theories.

(5) Denise Maldidier was born in 1931, and he was a French university professor specializing in discourse linguistics and its history. He worked at the University of Paris/Nanterre until his passing in 1992..

Cite this article as: Maldidier, Denise, *The Anxiety of Discourse: A Journey through the History of Discourse Analysis through the Works of Michel Foucault, trans:* **Badreddine El-Kacimi,** *Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 7, issue 3, 2023 180-193.*

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes..

أود أن أستهل هنا بالمقدمة التي وضعتها في بداية كتابي «قلق الخطاب»[7]، وهو الكتاب الذي كرّسته لميشيل بيشو: «تلك السقالات الطائرة التي لم يكن ممكنًا من دونها السفر في الطريق للمرة الأولى». هذه العبارة المقتطفة من المقالة الأولى لميشيل بيشو (Michel Pêcheux, Les Cahiers pour l'analyse, 1966)، تعبر من البداية عما أرغب في قراءته له، ألا وهي تلك الفترة التي بدأ فيها أواخر الستينيات، بما أسميه «مغامرة نظرية الخطاب»، وهي مغامرة قادها حتى النهاية. بعيدًا عن البناء/الهدم البطيء الذي حاولت وصفه في كتابي، أود أن أعود إلى عمل لا يمكن فهمه إلا في إطار رحلة، رحلة فردية، لكنها في الوقت نفسه مميزة وراسخة في التاريخ.

ظرفية

التاريخ حاضر من البداية: يجب أن نشير مرة أخرى -بإيجاز- إلى الظرفية النظرية في نهاية الستينيات في فرنسا. في ذلك الوقت، كانت البنيوية رائدة ونظرية (العلم) اللغوي تعد بتقدمات جديدة مع وصول النحو التوليدي[8] على وجه الخصوص. في الوقت نفسه، كانت الماركسية الألتوسيرية le marxisme althussérien ترج الثقل الذي كان يحمله التقليد، وتجدد التفكير في الجانب الأيديولوجي و(تسمح) بالانفتاح على علم النفس (نُشرت مقالة الثنائي ألتوسير «فرويد Freud ولاكانLacan» عام 1964 في النقد الجديد La Nouvelle Critique). كما أنه كان وقتًا تتصدر فيه الدروس الكبرى لعلم المعرفة بتأثير من باشلار Bachelard وكانجيم Canguilhem. ويبدو أن السياسة والمشاريع الفكرية الضخمة بدأت تتألف وتتفق. بالمجمل، توفرت الشروط والإمكانية لربط مجالات جديدة ومتداخلة فيما بينها. وهي الأرضية نفسها التي تشهد على ظهور ما يُعرَف بتحليل الخطاب على نحوٍ متزامن بين عامي 1966 و1968، والفضل يرجع إلى قطبين مهمين هما عالم اللغة جان دوبوا Jean Dubois، الذي كان حينها أستاذًا في جامعة نانتير، وميشيل بيشو الذي كان تابعًا لمختبر علم النفس الاجتماعي بالمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا.

هاتان الظاهرتان المزدوجتان كانا سببًا في إخراج بيانين تأسيسيين: مداخلة جان دوبوا في مؤتمر علم المعجم السياسي في سان كلود في أبريل 1968، و«التحليل التلقائي للخطاب»[9] الذي كان أطروحة

(7) L'inquiétude du discours, textes de Michel Pêcheux, choisis et présentés par Denise Maldidier, Editions des Cendres, 1990.
(8) Cf. N. Ruwet, Introduction d la grammaire générative, Pion, 1967.
(9) 2 Cf. N. Ruwet, Introduction d la grammaire générative, Pion, 1967.

أعدها ميشيل بيشو قدمها عام 1968 ونشرت في عام 1969 من قبل دونودDunod.

وهكذا في هذا الوقت، تشكل مجال بحث جديد في فرنسا يهم حول موضوع خطاب جديد، لسانيون وباحثون في العلوم الإنسانية والاجتماعية والمؤرخون الذين يهتمون –وعلى رأسهم ريجين روبان Régine Robin- بإثارة إشكالية الخطاب في مجال الكتابة التاريخية نفسه. والجدير بالذكر أنهم جميعهم حاولوا التفكير في استقلال تحليل الخطاب، رافضين في الوقت نفسه العلاقة التطبيقية (من اللسانيات إلى مجال آخر) والاندماج البسيط في علم اللغة.

آلة الخطاب (1966-1969)

كتاب ميشيل بيشو «التحليل التلقائي للخطاب» هو في الوقت نفسه استنتاج للأفكار الإبستيمولوجية التي بدأت منذ عام 1966 تقريبًا مع كانجيليم وألتوسير، وقد كان هذا التاريخ هو نفسه منطلق «مغامرة نظرية الخطاب». إنه كتاب غريب ومربك، يعود بلا شك إلى أكثر الجوانب شخصية وفردية في ميشيل بيشو، والذي في الوقت نفسه سيعطي وجودًا حقيقيًا للمجال الجديد الذي يبحث عن نفسه، ويسهم بشكل حاسم تاريخيًا في تشكيل تحليل الخطاب كتخصص علمي.

المسار النظري لميشيل بيشو هو مسار يتسم منذ البداية بالهدف الشامل، والخيال الكلي، الذي عمل بصعوبة على التخلص منه. ظهرت تجليات رؤيته الكبرى بوضوح في مقاله الأول الذي نشر في عام 1966 في مجلة «Les Cahiers pour l'analyse»، بعنوان-situation théorique des sciences social es et, spécialement, de la psychologie sociale (تأملات حول الوضع النظري للعلوم الاجتماعية وعلى وجه الخصوص علم النفس الاجتماعي). تحت اسم مستعار يدعى توماس هيربرت Thomas Her-bert، وكان يعزم العمل على الربط بين ثلاثة أقطاب هي: علم اللغة، والمادية التاريخية، وعلم النفس التحليلي. وهكذا فإن التحليل الآلي للخطاب اتخذ شكل آلة خطابية بادئ الأمر، أي: أنه من خلال جهاز معلوماتي بدأت مغامرة تحليل الخطاب. شغف فريد، وبصيرة عبقرية في الوقت نفسه، قد يؤولان دون استبصار الحدث من جميع جوانبه، تحليل الخطاب التلقائي الذي غالبًا ما تم ربطه بالجانب التقني. إنه كتاب يجمع بالفعل جميع مناحي اشتغال ميشيل بيشو حول الخطاب، ويقترح من خلاله منظور «نظرية الخطاب» التي كانت ما تزال كتصور (انظر العنوان «توجهات مفهومية لنظرية الخطاب»)، ويعرف بأهم إجراءات تحليل الخطاب.

على الرغم من التشويش الذي أسهم فيه بنفسه، من خلال عنوانه المثير للجدل، فإن كتاب ميشيل بيشو هو كتاب رائد ومؤسس، أُعطي واقعًا حقيقيًا لتحليل الخطاب الذي يبحث عن ذاته في بداية السبعينيات. سأستعرض بإيجاز النقاط الأساسية على كل من الصعيد النظري والجهاز.

تم صياغة مفهوم الخطاب من خلال تفكير نقدي حول القطيعة التي قام بها سوسير وليس حول تجاوزها. باستناد إلى اللغة (في معناها السوسيري كنظام)، يعيد الخطاب صياغة الكلام، «هذا المتلاشي الفلسفي»، والذي يجب تخليصه من تأثيراتها الذاتية. فهو يفترض -وفقًا للصيغة الألثوسيرية- «تغييرًا في الميدان»، أي: تدخلًا لمفاهيم خارجية لعلم اللغة. فالموضوع الجديد يتحدد هكذا -ولن يتغير الموقف- بتأصيل مزدوج في اللغة والتاريخ. ويتم التفكير فيه على نحو يفرض الانقطاع الفلسفي مع الأيديولوجية الذاتية التي تهيمن على العلوم الاجتماعية وتحكم قراءة النصوص.

من الناحية الجهازية، أود أن أقتصر على المقدمة التي تعد حاسمة لتحليل الخطاب وتعتبر مفهوم شروط الإنتاج كمبدأ تكويني للبيانات اللغوية أو النصية. يبدو لي أن هذا المفهوم يحمل قيمة مزدوجة، قيمة نظرية تؤكد تحديد الخطاب من الخارج، وبالتالي يُحدث تحولًا بالنسبة لوجهة نظر اجتماعية-لغوية تحلل التغيرات المشتركة بين عالمين (يرجع في ذلك إلى جان دوبوا الذي يشير إلى تحويل تحليل الخطاب إلى نموذجين متعددين، لغوي واجتماعي). وقيمة تشغيلية، حيث ترأس شروط الإنتاج اختيار التسلسلات التي تشكل الفضاء المغلق للنص. الخطاب هو كائن مبني، متمايز عن الكائن التجريبي، وهو تسلسل الجمل الناتج عن نص أو فرد.

يعزز هذا المفهوم الدقة في العملية التحليلية التي يتبعها تحليل الخطاب. ولكن كما سنرى لاحقًا، فإنه في الوقت نفسه يؤسسها، ويقيدها أيضًا. ينتهي تحليل الخطاب الآلي بـ«استنتاج مؤقت»، وكتاب ميشيل بيشو نفسه يعتبره مجرد مسودة. هذا صحيح بالطبع بالنسبة للجهاز، ولكن هناك المزيد. من الناحية النظرية، فإنه لا ينفصل عما يحاربه إلا جزئيًا. يجب أن نأخذ في الاعتبار هنا استراتيجية أكاديمية تمحو -على عكس المقالات المنشورة في مجلة Cahiers pour analyse- آثار الماركسية والأيديولوجيا. من الناحية المعرفية، يحمل الكتاب آثار العدو المواجه له: علم النفس الاجتماعي، الذي لا يريد أن يدرك أنه يعمل في المتخيل. كما يظهر في الفصل الشهير حيث يتساءل عن شروط إنتاج الخطاب، يستدعي مفهوم «تكوينات متخيلة» صورة المكان A للفرد الموجود في A إلخ، ويحدث تحولًا من المكان الذي يحدد الوضع الموضوعي في هيكل الطبقة إلى «صورة المكان». هذا المقطع الذي سيُراجَع

بشكل ذاتي بشدة من قبل ميشيل بيشو في1973-74 (cf. L'inquiétude du discours, p. 173-4) .

بغض النظر عن ذلك، فإن تحليل الخطاب الناشئ يدين بالكثير لميشيل بيشو. فقد اعتمدت إلى حد كبير على مبدأ تشكيل المجموعة على أساس ظروف إنتاج ثابتة ومتجانسة. استوعبت في إطاره عددًا من المصطلحات التي جاءت من تحليل الخطاب التلقائي: العمليات الخطابية وآلية إنتاج الخطاب... كما أن آثار ميشيل بيشو في تشكيل نوع من الاصطلاح في تحليل الخطاب (بغض النظر عن التناقضات النظرية الفعلية) انتشرت في فرنسا بشكل محدد، وهو ما يفسر -دون تبرير بالضرورة- الصيغةَ الشهيرة التي قالها لويس جسبان Louis Guespin عن «المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب». في تاريخ الممارسات العلمية في فرنسا، لا شك أن ظهور تحليل الخطاب في نهاية الستينيات من القرن الماضي كان حدثًا؛ فقد قدم تحليل الخطاب وسيلة للمقاربة بين اللغة والتاريخ؛ أخرج الماركسيين من الخطاب التأملي في فلسفة اللغة.

مهما كانت أهمية كتاب ميشيل بيشو الأول في هذا الحدث، «الآلة الخطابية» ليست سوى أول تجسيد لتوجه شامل يسعى من خلال الخطاب إلى خلق تواصل. فهي تندرج ضمن مسار نظرية الخطاب التي يعمل ميشيل بيشو عليها بشغف، في حركة مستمرة بين النظرية والأداة. كما أنه يُفتَح فصل ثانٍ يمتد من عام 1970 إلى «حقائق لاباليس[10]Vérités de La Palice»، الكتاب الذي يعتبر نظرية الخطاب الكبرى الذي نُشر في عام 1975.

نظرية الخطاب (1970-1975)

لقد حاولت في «قلق الخطاب» وصف عملية بناء نظرية الخطاب عبر التعديلات والتقدم والنقد المستمر. إنه نظام مفاهيمي كامل ينشئه ميشيل بيشو تدريجيًّا للتفكير في الخطاب كفضاء يجمع بين اللغة والتاريخ. تصب الرؤية الآن بوضوح في إطار الماركسية، تلك التي يعيد ألتوسير صياغتها في إعادة قراءته لكتاب «رأس المال». يمكن وصفها في عبارة واحدة: الهدف هو بناء نظرية للخطاب تتصل بنظرية الأيديولوجيات ضمن إطار المادية التاريخية. ما يميز هذا البناء الجديد هو أنه يعمل على مستوى

(10) تشير هذه التعبيرة إلى جاك دو شابان، ماركيز لاباليس، الذي ولد عام 1470. في عام 1515، صار مشيرًا لفرنسا ولمع في أهم المعارك، بما في ذلك معركة بافيا حيث لقى حتفه. في القرن الثامن عشر، كتبت الشاعرة مونواي أغنية تسخر من فضائل لاباليس. كانت هذه الأغنية الشعبية تحتوي على 51 مقطعًا يتضمن تأكيدات واضحة لدرجة أنها تصير مضحكة. يشار في كثير من الأحيان إلى الكلمات التالية كمثال: «توفي يوم الجمعة، آخر يوم في عمره، لو كان توفي يوم السبت لكان عاش أكثر». منذ ذلك الحين، نستخدم مصطلح «حقيقة لاباليس» عندما يكون الأمر واضحًا لدرجة أنه مضحك.

الخطاب الذي على النحو نفسه لا يخلط الخطاب باللغة، إذ لا يجعل اللغة جزءًا من الأيديولوجيا. في نقاط البداية لنظرية الخطاب التي يطورها ميشيل بيشو بتطويرها، هناك تفكير في اللغة (واللسانيات) وتعمق في العمل الذي يقوم به ألتوسير في تلك الفترة حول الجانب الأيديولوجي واستدعاء الذات من قبل الأيديولوجيا (انظر المقالة في «لا بانسيه» حول الأيديولوجيات الحركية، يونيو 1970). فيما يتعلق باللغة، يجب أن نذكر أن مفهوم الخطاب نشأ تبعًا للانقسام السوسيري بين اللغة والكلام بتفوق الفردانية، وفي نقد الدلالات اللغوية.

الانتقادات التي يطرحها ميشيل بيشو هي رؤية للغة ليست بنية فوقية بأي حال من الأحوال، بل هي الأساس الذي تتطور عليه العمليات الخطابية-الأيديولوجية، النظام الذي يقاوم محاولات المنطق والممارسات العملية. منذ البداية، كان وفيًّا لسوسيرSaussure، وغير ملتفة لبنفنيست Benveniste الذي يبدو له أنه يعيد، في نظريته عن التلقي، أوهام الذات الفردية. يبدو له أن ساحة التلقي لم تكن سوى ساحة خيالية. من جانب الأيديولوجيا، تمثل نظرية الخطاب طريقة لاختبار نظرية ألتوسير من خلال المادية اللغوية. بطريقتين تتلاقيان في «حقائق لاباليس»: من خلال إضافة مستوى خطابي إلى مخطط الهيئات المقترحة من قبل الفيلسوف الماركسي، من خلال إعادة العمل على الاستدعاء الأيديولوجي الذي يستجوب في آن واحد وضوح المعنى وموضوع الخطاب. ويسبق إنشاء نظرية الخطاب الذي هو أيضًا نظرية لمادية المعنى مسيرة طويلة، تمتد من مقدمة مفهوم التكوين الخطابي في مجلة «لانغاج 24» (1971) إلى ترتيب المفاهيم المرتبطة في «حقائق لاباليس».

لا يمكنني هنا أن ألخص هذه النظرية بشكل مفصل. لن أتوقف طويلًا عند الفكرة الأولى، وهي فكرة تعتبر نواة نظرية الخطاب، وهي فكرة التشكيل الخطابي. سواء تم اقتباس التعبير من ميشيل فوكوMichel Foucault، أم لم يتم، فإن التحول كان مهمًا. بتحديد «ما يمكن ويجب أن يقال من موقف معين في سياق معين»، يتم تعريف التشكيل الخطابي كجزء من التشكيل الأيديولوجي. (انظر «القلق...» ص. 24). بعيدًا عن فوكو، الذي يشتبه في أنه يتبنى «خطابًا موازيًا» للمادية التاريخية، فإن هذا المفهوم يمثل أول علاقة بين التاريخ المنظور من خلال قوى العلاقات الأيديولوجية في المجتمعات الطبقية ومادية اللغة. كثيرًا ما تبرر إعادة استخدامه في مجال تحليل الخطاب المخاوف التي عبر عنها ميشيل بيشو، عند عزله عن المفاهيم الأخرى وعدم تناوله بشكل مكثف، حيث غالبًا ما أدى إلى انجرافات تصنيفية تخالف البعد التاريخي الذي ينبغي أن يبرره. هناك استثناء ملحوظ هنا: إعادة

معالجة المفهوم من قبل جان جاك كورتين Jean-Jacques Courtine في أطروحته حول «الخطاب الشيوعي الموجه للمسيحيين»[11].

أود أن أضع الضوء هنا على ما اعتبرته في قراءتي الاستعدادية، المفتاحَ الأساسيَّ للنظام، وهو مفهوم التفاعل الخطابي interdiscours في علاقته بالمسبق المبني préconstruit ، الذي تم تطويره مع بول هنري، والخطاب الداخلي ‹intradiscours. هذه المفاهيم الثلاثة تشكل في رأيي جوهر نظرية الخطاب الحاسم.

تم افتراض المفهوم في «تحليل الخطاب التلقائي» (انظر فكرة الكلام الضمني الذي يتجلى من خلال مبدأ الفرق المزدوج، «القلق...» ص. 130)، وذُكِرَ في المجلة «لانغاج 37»، وفي «حقائق لاباليس»، يتم صياغته بلغة الماركسية اللينينية. ببساطة أكبر، يمكننا بالاستناد إلى ميشيل بيشو نفسه، تعريفه بأن الخطاب يتشكل عندما يكون هناك خطاب سابق موجود، وأنه (يتحدث) دائمًا «مسبقًا وفي مكان آخر وبشكل مستقل». المفهوم الذي قدمه ميشيل بيشو لا يتطابق مع فكرة التناص لدى باختين، بل يعمل على مجال الخطاب الأيديولوجي واللغوي الذي تنتشر فيه التشكيلات الخطابية وفقًا لعلاقات الهيمنة والتبعية والتناقض[12]. ومن هنا نستطيع أن نرى العلاقة التي تتأسس مع المسبق المبني كنقطة انطلاق للتفاعل الخطابي.

بول هنري وميشيل بيشو أعدّا مفهوم البناء المُسبَق كبديل للافتراض، على عكس ما كان يعمل به أ. ديكرو في بداية السبعينيات، حيث أعاد طرح نفس تساؤل عالِم البرمجيات فريغه. عندما يُنظر إلى الافتراض من وجهة نظر منطقية، يتعلق الأمر بالنقص في اللغات الطبيعية فيما يتعلق بالعلاقة مع المرجع الأصل: بعض الهياكل النحوية (تفترض) وجود مرجع أصل، بغض النظر عن تأكيد الذات. في المجال المنطقي-سياقي الذي يتخذه ديكروDucrot ، تشكّل الافتراضات الإطار الذي يجب أن يندرج فيه الحوار، وبواسطة تأثيرات استراتيجية ناجمة عن علاقات القوى المؤسَّسة بلعبة اللغة، تشكّل الفخ الذي يمكن للمُتَكَلِّم أن يُحَاصِر به المتحاور. في انفصال عن هذا التفسير المنطقي-سياقي، يروي بول هنري وميشيل بيشو أن الهياكل النحوية التي تُمكِّن عرض بعض العناصر خارج تأكيد الذات (هياكل التحديد والنسب والصفات...) تُشكِّل آثار بناءات سابقة، من عناصر الخطاب الموجودة بالفعل التي نسينا المتلفظ بها.

(11) Langages 62, Analyse du discours politique, 1981.

(12) Cf. J. Guilhaumou, D. Maldidier, R. Robin «Jalons dans l'histoire de l'analyse de discours en France: un trajet des historiens du discours», Discours Social /Social Discourse, 1989, vol. 11, number 3, Montréal.

عندما يُقترح ميشيل بيشو في «ليه فريتي دو لا باليس»، بطريقة مُستفزّة العبارة: «من أنقذ العالم بوفاته على الصليب لم يكن موجودًا أبدًا»، يُقابل ذلك التعليق البراغماتي-المنطقي الذي يُسلط الضوء على تفاهة العبارة بتأثير مسبق التشكيل وبالتالي التأكيد والاعتراف الناتج لكل واحد منا بواسطة التوصيف النسبي «من أنقذ العالم بوفاته على الصليب...» إشارة إلى المُقالي الذي يضيع في ليل الزمان والذي عرفناه دائمًا! إعادة، بدون وعي المخاطَب لشظايا خطابية جاءت من مكان آخر وكانت قد تشكّلت بالفعل. أما الخطابية الداخلية intradiscours، فإذا كان يتوافق مع سير الخطاب وتسلسله التجريبي في التسلسل النصي، فإنه يشير أيضًا إلى المفهوم المرتبط بالتفاعل الخطابي in-terdiscours. بدءًا من «ليه فريتي دو لا باليس»، وبمفاهيم مجردة بشكل كبير، أبدى ميشيل بيشو ما سيصير مركزيًا في الأبحاث التي تم إجراؤها بعد عام 1980: إعادة التسجيل المستترة دائمًا في الداخلية للمقال لعناصر التفاعل الخطابي، «حضور (غير مقول) يعبر عن المقول دون حدود ملموسة» (صيغة يدوية لعام 1982).

بنى ميشيل بيشو آلة خطابية لتحليل الخطاب. نظرية الخطاب التي تعرض نفسها في «ليه فريتي دو لا باليس» هي آلة نظرية كبيرة تحاول «أن تحتوي كل شيء». تحت سيطرة الأيديولوجيا السائدة والتداخل خطابي، يتشكل المعنى في تشكيل الخطاب بغفلة عن المخاطَب، الذي يظن نفسه سيدًا لخطابه ومصدرًا للمعنى وهو يجهل أنه مستعبد للأيديولوجيا. وعلى الرغم من البناء الصارم، يظهر القلق. يعبر عنه الكتاب الذي يتعذر على ميشيل بيشو التخلص منه، إذ يعلم بالفعل أنه هو الهوس بالكمال، وبسرعة كبيرة، سيبدأ الندم النظري في الاستفادة مما يأتي من الظروف. تلتقي السيرة الشخصية لميشيل بيشو مع التاريخ؛ فيبدأ وقت الهدم.

التفكيك وإعادة التكوين: من الترددات (1976-1979) إلى التشكيلات (1980-1983)

يجب أن نتطرق إلى هذا اللقاء الجديد والمؤلم مع التاريخ. فمنذ النصف الثاني من السبعينيات، بدأت فرنسا تعيش أولى التصدعات تلمح لأزمة في الأفق قد تؤدي إلى تغيير جذري في الظروف النظرية نحو عام 1980. هذه الأزمة أولًا وقبل كل شيء أزمة سياسية تزامنت مع انهيار البرنامج المشترك في عام 1977. هذا الانهيار رافقه تقليل قيمة السياسة، والشك في التجانس والتفكير المجمع. مما أدى إلى الانعزال عن

الشأن الخاص، وعودة الفرد الشيء الذي شكّل أفقًا جديدًا. الأزمة لم تغفُ عن حقل اللسانيات أو نقد اللسانيات الشكلية بل فتحت الباب أمامها لتتدفق. والصحيح أنه في فرنسا كان هناك تأخر، ففي العالم الأنجلوسكسوني كان الشغف باللسانيات والتلفظ وكذا المقاربات النصية وقراءات باختينBakhtine سابقًا.

بعد نشر «حقائق لاباليس»، بدأ ميشيل بيشو في فك تدريجي للآلة النظرية التي بناها بشكل رائع في سياق ملحاح. لقد وصفت في كتابي هاته الفترة التجريبية بين عامي 1976 و1979، ثم بعد مؤتمر الماديات الخطابية المنعقد في نانتير Nanterre في عام 1980[13]. كانت بداية جديدة: العمل الجماعي الذي تم تنفيذه في إطار فريق بحثي أسسه وقاده حتى وفاته في عام 1983، وكان هذا الفريق المسمى ADELA مجموعة تابعة للمركز الوطني للبحث العلمي هدفها تحليل الخطاب وقراءة الأرشيف من خلال تفكيك وإعادة بناء تحليل جديد ممكن للخطاب. وأود هنا أن أحاول تحديد ما لا يمكن أن يستمر في زوج النظرية/وتحليل الخطاب اللذين شيّدهما.

منذ فبراير 1978، كتب ميشيل بيشو نصًّا عن الندم النظري يضعه تحت إشراف لاكان ويطلق عليه عنوانًا: «ليس هناك سبب إلا ما يخرب». وهذا النص سيصير فيما بعد الملحق الثالث في الترجمة الإنجليزية لـ«حقائق لاباليس» التي نُشِرت في عام 1982.

تتعلق «عملية التصحيح» بالمبدأ نفسه للبناء النظري الكبير، إنها تضع الأساس لتحطيم الخيال بشأن الكمال يؤدي المشروع الذي يهدف إلى فك أساليب الاستدعاء وكشف نرجسية الفرد في النهاية إلى استبعاد الفرد والتاريخ على حد سواء، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى التاريخ، دون ترك المجال أو الإمكانية للعيوب والأخطاء. يكون الفرد مستبدًا جدًّا، وتسيطر الأيديولوجية السائدة بشكل محكم. تُستبعَد فرادة الذات من هذا البناء الذي في النهاية يظل تحت سيطرة مزدوجة للإنسان والتاريخ، أي: منغلق المعنى.

«لا يوجد سبب إلا فيما يخطئ» هي في الحقيقة عبارة تحتوي على نقد ذاتي يمكن أن يكون سببًا في التخلي عن كل ما سبق.

ميشيل بيشو ليس من الذين يستسلمون أو يتخلون عن الأشياء بسهولة، ففي بداية الثمانينيات، رفقة أولئك الذين ساروا معه منذ البداية في مغامرة الخطاب، ومع آخرين يمثلون فتحًا نحو التخصصات التي كثيرًا ما تم تبخيس تفكيرها المستعرض واتهامها بالتقصير (المؤرخون، علماء

(13) B. Conein et al., Matérialités Discursives, Presses Universitaires de Lille, 1981.

الاجتماع، علماء الإنسان...). من أجل خلق إمكانية إعادة تشكيل الخطاب وتحليله، أو الاستماع إلى ما ليس مرغوبًا في الاستماع إليه، فكان مفيدًا الاطلاع بطريقة مغايرة على قراءات آنذاك لميشيل دو سيرتو Michel de Certeau، فيتجنشتاين Wittgenstein ، الأثنوغرافيا... أو التفكير بطريقة جديدة في كتابات ميشيل فوكو. كما أن هاته الإمكانية كانت متعلقة أيضًا بالخروج عن المسارات التي قطعها تحليل الخطاب سلفًا من خلال الدراسات المنجزة (الخطاب السياسي المشهور، «الخطاب المذهبي» المرتبط تاريخيًا في فرنسا ببنية بعض الأحزاب السياسية) والارتكاز بدله على أشكال أخرى من الخطاب كالخطاب غير المشروع، والأيديولوجيات المستضعفة، والتأمل في الخطابات العامية، والحوارات، ودراسة الأرشيف، والعمل على آثار الذاكرة ولا سيما «ذاكرة التاريخ» التي تعبر عن الأرشيف غير المكتوب للخطابات السفلية.

هذا العمل الذي يتزامن مع العودة النقدية المستمرة للنظرية والآلة الخطابية التي تعتبر مختبرها، يؤدي إلى إعادة أشكلت الخطاب الذي تتشابك مواضيعه بشكل وثيق، وهو نتيجة متوقعة لتماسك النظام نفسه. أما العناصر التي تشكلت تحليل الخطاب فكانت موضوع استفسار؛ فبدأت سلسلة من إعدادات التوجيه ترتسم.

كان التحليل الخطابي من خلال بناء المدونات النصية والعدة المنهجية، يعرف نوعًا من التكرار المماثل والمتجانس.

فكان لزامًا عليه أن يعطي الأولية للغير على الذات، والعمل أكثر على الاختلاف واللاتجانس.

كما أن التحليل الخطابي كان متمحورًا حول مفهوم التداخل الخطابي؛ مما استوجب عليه من خلال دراسة التسلسلية، أن تعمل أخيرًا على علاقة الاتصال الداخلي/الخارجي للخطاب.

كان التحليل الخطابي الموجه نحو التكرار، مهتمًا بالتاريخ بحروف كبيرة، بالبنيات بدلًا من الأحداث؛ مما فرض بقوة مواجهة موالي التاريخ، والقصص الفردية، والحدث.

إن اللغة والتاريخ لم يكونا متماثلين بالنسبة لميشيل بيشو قبل 1975، وقد سلف وذكرت مسألة اهتمام بيشو بعمل المؤرخين، خصوصًا مؤرخي الذهنيات. في حين كانت إشكالية اللغة تسكنه باستمرار فكان جل اهتمامه منصبًّا على اللسانيين الذي يشتغلون على حدود اللغة والخطاب مثل جوديث ميلنر Judith Milner وألموث غريسيلون Almuth Grésillon وجاكلين أوثييه Jacqueline Authier والأبحاث الجديدة المرتبطة بالخطابة (cf. Ducrot, **Les mots du discours,** 1980).

كما انصب اهتمامه باللغة من خلال التساؤلات التاريخية والمعرفية التي أجراها مع فرانسواز غادي Françoise Gadet بخصوص اللغة المفقودة[14]، وقد تعارضت أفكاره مع المذهب المعرفي والبيولوجي الذي كانا رائدين خلال هاته المرحلة، فضلًا عن التصور الميليني[15] للغة وما رافقه من غموض وشاعرية وثغرات، ويعتبر السياق الجديد مجالًا لتحليل جديد للخطاب.

وظهر تصويب جديد يقارن بين «الأنظمة الخطابية المستقرة منطقيًا» في مجال الرياضيات والتكنولوجيا وأجهزة الإدارة، وبين «الأنظمة الخطابية غير المستقرة منطقيًا» في المجال الاجتماعي التاريخي، ويحدد في هذا السياق مجالًا مبتكرًا لتحليل للخطاب. فماذا يمكن أن يكون تحليل الخطاب بالنسبة لمشيل بيشو؟ سأحاول هنا أن أتطرق إلى آخر التشكيلات التي طبعها العمل الجماعي لفريق أديلا ونصوص مشيل بيسو الأخيرة.

في مجال المفاهيم، يظل التفاعل الخطابيl'interdiscours الذي وضعته كمفتاح للنظام مركزيًّا مع المفاهيم المرتبطة به وهي المبني المسبق précontruit والخطاب المتداخل l'intradiscours. ولكن هناك تحرك ناتج عن التردد الذي يبدو أنه يؤثر على التفاعل الخطابي، حيث يدخل مفهوم «مجال الذاكرة» الذي قدمه جان جاك كورتين[16] بعد ميشيل فوكو، في منافسة معه ويبدو في بعض الأحيان بديلًا بسيطًا له. هذا يشكل تعديلًا مهمًا، نظرًا للمواقف الأولية بشأن مسألة الذات، ولكنه قد يسمح -ربما- من خلال إضعاف المفهوم، بإعطائه القدرة على العمل وتوضيح إلغاء الحظر من جانب الذات. كما كان متوقعًا، يتم وضع التكوين الخطابي تحت شكوك كبيرة بشأن ميله نحو التصنيف وتغذية التفكير المتجانس.

لكن إعادة التشكيل تؤثر في الجهاز نفسه، الذي بُني بشكل جيد، للتحليل الأولي للخطاب. كان هذا الجهاز ينطبق على التوجهات النظرية الأساسية نحو الخطاب بمفهومه التفاعلي والمتكرر، أي: الخطاب نفسه، ومفهوم ظروف الإنتاج -على وجه الخصوص- ينظم العلاقة التحديدية للخطاب من خلال طرف خارجي مفكر في إطار الأيديولوجيا، وهو المسؤول مباشرة عن إنتاج التجانس وبالتالي عن «فشل التنوع».

---

(14) F. Gadet, M. Pêcheux, La langue introuvable, Maspéro, Coll. «Théories», 1981

(15) Judith Milner المقصود التصور الذي يعود لصاحبه، الذي يعتقد أن اللغة مسألة سلطة وصراع طبقي.

(16) Op. cit.

لإعادة التفكير في الآلية والخروج من النمط الأولي لتوصيل الميتاخطاب[17] الماركسي مع نصوص مُقسَّمة مسبقًا استنادًا إلى المعرفة، يجب أن نفكر في منهج يسمح بظهور مواقف المتكلم. يتناول ميشيل بيشو في نصه «تحليل الخطاب هذا السؤال على مدار: ثلاث فترات. وهذه هي المرحلة الثالثة من تحليل الخطاب، مرحلة تفكيك آليات الخطاب».

يجب أن نُقلّب الآلية الصارمة لتحليل الخطاب. ينتقد ميشيل بيشو هذه العملية خطوة بخطوة، بترتيب: المدونة، والوصف، والتفسير، ويعارضها بنهج حلقي تراكمي. تأخذ الحوسبة التي استخدمها لأغراضه النظرية، قيمة جديدة بالمعنى الحقيقي للكلمة كأداة لاكتشاف المعرفة. وقد تم تحقيق ذلك من خلال لقاء فريق الحوسبة في جامعة كيبيك في مونتريال l'UQAM بقيادة بيير بلانت، مصمم ومنشئ برنامج DEREDEC، نحو عام 1981-1982[18].

الآن، يتعين علينا بناء «آليات متناقضة» تسمح من خلال حركة مستمرة، بإنتاج لحظات جديدة للمدونة، وصياغة افتراضات جديدة، وفتح مسارات جديدة لاكتشاف الشبكات التي تشكل الملفوظ. ومن خلال مسار غريب، يعيد ميشيل بيشو في النهاية اكتشاف فوكو، الذي لم يتمكن من لقائه من قبل. مع تلاشي الوهم العلمي، صار تحليل الخطاب كتخصص تفسيري من دون برنامج أو منهجية محددة لديه، فبقي وضعه إشكاليًّا. من خلال سيرورة لا متناهية، فإنه يدعو إلى بناء موضوعات خطابية متواترة بين نظامية اللغة والتأريخ والتفاعل الخطابي l'interdiscursivité.

Bibliographie:

1. L'inquiétude du discours, textes de Michel Pêcheux, choisis et présentés par Denise Maldidier, Editions des Cendres, 1990.
2. Cf. N. Ruwet, Introduction d la grammaire générative, Pion, 1967.
3. Cahiers de Lexicologie, 1969-II, Didier-Larousse.
4. Langages 62, Analyse du discours politique, 1981.

(17) مصطلح (ميتاخطاب) (ميتاديسكور) يشير إلى الخطاب الذي يتناول أو يعلق على خطاب آخر. يمكن أن يكون هذا الخطاب هو تحليل أو تقييم لخطاب آخر، أو يمكن أن يكون خطابًا يعلق على العملية اللغوية أو النصية بشكل عام. يعتبر الميتاخطاب أداة للتفكير والنقد والتحليل للخطابات الأخرى، ويساعد في فهم كيفية تشكل المعنى وتأثير الخطابات بعضها في بعضٍ.

(18) Cf. «Le système de programmation DEREDEC» dans Mots 6, 1983.

5. Cf. J. Guilhaumou, D. Maldidier, R. Robin «Jalons dans l'histoire de l'analyse de discours en France: un trajet des historiens du discours», Discours Social /Social Discourse, 1989, vol. 11, number 3, Montréal.
6. B. Conein et al., Matérialités Discursives, Presses Universitaires de Lille, 1981.
7. F. Gadet, M. Pêcheux, La langue introuvable, Maspéro, Coll. «Théories», 1981
8. Op. cit.
9. Cf. «Le système de programmation DEREDEC» dans Mots 6, 1983.